

غادة شبير تحيي بصوتها الشيخ سيد درويش: غنائي منذور للإرث العربي الأصيل

لقد أحببنا هذا الحضور الذي يفرض هيئته على المستمع، لا لرصانة الأداء وحسب، لا لهذا الصوت المشغول بتأن وبسال على نول المقامات بخيوط حنجرتها الذهبية، بل وأيضا لهذا النبع الذي مضت تنقب فيه عن كل إرث ضائع وأهمله الزمن، تعيد إليه رونق التجدد والحياة. من إختصاصها المعقّد في الموسيقى الشرقية، الدينية والدينيوية، شقت غادة شبير دربا تلتقي عليه أزمنة من المؤلفات الموسيقية والغناء، جعلت منها لونها وأسلوبها المميّز، كما رسالتها الموسيقية الممددة على سنوات من الجهد والعطاء والتشجيع من العلامة في الموسيقى الدينية، أستاذها، الدكتور الأب لويس الحاج في معهد الموسيقى التابع لجامعة الكسليك. هنا كان مختبرها، حيث نقتب ودرست أصول الموسيقى بفروعها العديدة منها الترانيم الدينية العربية والسريانية والموشحات. تعلّمت وعلمت ولا تزال تعتبر الطريق في بداياتها ما دامت المقامات تندمها لتعمق أكثر في التراث العربي الأصيل.

قبل يوم من ذهابها إلى مهرجان قرطاج، أهدت إليّ ألبومها الجديد "قوالب" وفيه مختارات من ألحان الشيخ سيد درويش وأغنية واحدة من ألحانها في كلمات لابن زيدون "مؤال ولأدة بنت المستكفي". هذا الألبوم المشغول بعياقة وذوق، صدر عن مؤسسة "زمن" ويحوي أسطوانة و"د. ف. د" وأكثر من ذلك، نتفحصه ككتاب، تضمن إلى الأغاني ومقاماتها، صورا للغازفين عن إيمان حمصي على القانون، طوني خليفة على الكمان، بسام صالح على الكنترباص، سمير سبليني على الناي، إيلى خوري على البرق، أنجيلا هونانيان على الشيللو علي الخطيب على الرق. هذا الكتاب في حجم كف اليد يختصر درب غادة شبير الفني، ويبدل قادري فنّها على هذه الناحية التي تطل منها شمسها. في ما يأتي هذا الحوار معها:

● غادة شبير، تنوعين في الصنف الموسيقي ويبقى هاجسك واحدا: التراث.
- بالتزامي، الترانيم السريانية والموشحات وألحان الشيخ سيد درويش، كأني أنقب معا في هذا الشرق عن الجذور وعن إرث أرفض أن يضع. في آن واحد أشتغل على الألحان السريانية المشرّسة في جذوري كما على المقامات العربية، ولا شك أن الشيخ سيد درويش كان هو من حرّك شوقي إلى هذا النوع من الغناء، فلطالما استمتعت بأعماله وفكرت مرارا بأن أقوم بتسجيل عمل مهم يعرّف عن هذا الفنان العبقري، وما قد حققت جزءا من أمنيّتي في هذا الألبوم "قوالب"، أي قوالب من الغناء العربي.

● كباحثة موسيقية، خيارك لسيد درويش جاء في هدف بحثي أكاديمي أو لمتعة خاصة في إداء أغانيه؟
- الاثنان معا. لقد وجدت من الضروري القاء الضوء على الشيخ سيد درويش الذي كان صلة الوصل بين الغناء العربي القديم والمعاصر فلا نغالي إن قلنا أنه موسيقار القرن العشرين بلا منازع. وكان لا بد من أن أعرف في هذا التسجيل بأن ليس هنالك جملة لحنية قديمة وأخرى جديدة، فالرابع من الألحان يبقى رائعا حتى بمرور عشرات السنين، يبقى التصرف في تنفيذ العمل وفي الأداء الفردي.

● أما تشعيرين ونحن نعيش زمن الانحطاط الفني على أكثر من جانب بأنك طير يعني خارج سربه؟
- العالم بأجمعه استدار اليوم نحو كل رخيص ربيع. المال بات يدفع لا على العمل الجيد بل على الكليبات الباهظة الاخراج، الباهرة بتصويرها لتغطي الضعف الفني. إنها موجة عامة غير مرتبطة ببلد ولغة، لكن لديّ سؤال أعتبره كإرشاد؟ ألم يفهم جيلنا ربما ما أراده الشيخ سيد درويش من التجديد والتطوير؟ أليست الجملة اللحنية كافية لتطوير موسيقانا، أم نحن ملزمون مرافقة موسيقية توازي

● لماذا سميت العمل "قوالب"؟
- لقد أردت به تسمية علمية تفسّر ما يحتويه هذا العمل من أشكال غنائية، وبما أنني اخترت من أعمال سيد درويش الطقطوقة والدور والموشح، فقد رأيت من الضروري القاء الضوء على الأشكال الغنائية المختارة وغير المتداولة اليوم.

● لقد أعطيت في هذا الألبوم. الكتيّب، نبذة جد مفيدة عن كل شكل من هذه الأشكال الغنائية...
- إنها قوالب من الغناء العربي. فالموشح مثلا وهو شكل شعري أندلسي الأصل لنظام محدد في الصياغة، يختلف شكليا عن نظام القصيدة التقليدية المبنية على أساس البحور الخليلية المعزوفة والتي تعتمد الوزن الواحد والقافية الواحدة. الشيخ سيد درويش يعتبر من أهم ملحنّي الموشحات في القرن العشرين فقد لحن أكثر من عشرين موشحا إشتهر القسم الأكبر منها.

● بمّ تميّزت موشحات الشيخ سيد درويش؟
- بصعوبة في الأداء وبجمال اللحن، لا سيما جمال التنميق والمهندسة في استعمال المقام والايقاع. ومن حريتي للاختيار تضمّن هذا الألبوم الموشحات التي تتفاعل فيّ، منها

"طف يا دري بالقناني" وهي من مقام حجاز كاركود. عشق السيد درويش مقام الحجاز كاركود فألف العديد من المقطوعات بقوالب مختلفة على المقام الواحد. ففي موشح "طف يا دري بالقناني" استعمل إيقاع الظرافات النادر استعماله في الموسيقى العربية عامة وفي الموشح خاصة.

● ما الذي ناداك إليه؟ صعوبته أم جماليته؟
- لقد سحرتني أولا الجملة اللحنية الرائعة، خاصة في الميوط نحو الركيّزة، فمساره اللحنى مليء بالنغم والقوافي. ويعتبر هذا الموشح في رأيي الفكرة اللحنية الجديدة التي فتحت الطريق في ما بعد لموشحين كثر تأثروا به فجاءت بعض موشحاتهم تحمل نكهة جديدة مستنبطة من هذا التراث العريق. كما أضفت موشح "منيّتي عز اصطباري" من مقام نهوند و"حبر الأفكار" من مقام ماهور، ومن الموشح إلى الدور مع أغنية "أنا هويت وانتهيت" من كلمات محمد حسين القاضي، و"حبر الأفكار بدري"، "أنا عشقت"، وصولا إلى الطقطوفة مع أغنية "يا ناس أنا مت في جبي" و"يا عشاق النبي" و"شد الحزام".

● يبقى لك في هذا الألبوم لحن زينبت به قصيدة ابن زيدون مؤال "ولأدة بنت المستكفي"، من أين انطلقت في اللحن؟
- كتب ابن زيدون هذا الشعر في منتصف القرن الحادي عشر وهو حوار بين شاعرين يتكلّمان عن الحب والشوق، وأعتبره من أجمل ما كتب من شعر في زمن الأندلس. انطلقت من مقام راحة الأرواح وأضفته إلى عمل "قوالب" لسيد درويش لايماني بأن ما يرتجل من جمل لحنية تظهر منه خربة مطلقا في الأداء.

● الرحلة معك إلى بلاد الأندلس تحيي الحواس والقلب. هل تسعيني في ختام مقابلتنا هذه بعضا من قصيدة "ولأدة"؟
- كان الصوت مجلوا، على ارتجال، والحنان في كل كلمة وأنا أحب منها ما للعشاق.

أنشدت:
أغائبني وحاضرة معي / أناديك لمّا عيل صبري فاسمعيني /
أفي الحق أن أشفى ببحك أو أرى / حريقا بأنفاسي، غريقا بأدمعي؟
هي منسى